في التربية

كيف ندرس الانشاء ؟

بقلم عبد العزيز عتيق
المدرس بعباس الابتدائية للبنات

— ١ —

من المتفق عليه أن شكوى المعلمين تكاد تكون شاملة من الإنشاء وطرائق تعليمه في مدارسنا ، وهم ينسبون الصعوبات التي تعترضهم في ذلك عادة إلى أمور : أهمها ضيق الوقت المخصص للانشاء ، وقلة محصول الطالب في اللغة ، ثم إلى طريقة تصحيح الكراسات ، تلك التي يجهد المعلم نفسه فيها خارج الفصل ، ثم لا يكاد يفيد الناشيء منها ، أكثر من الاطلاع على الدرجة المعطاة !

وأمام هذه الصعوبات قام كثير من المعلمين أفراداً وجماعات ، بوضع كتب شتى يذللون بها سبل الإنشاء أمام التلميذ والمعلم . ومع أن بعض تلك الكتب قد أهملت فيها قواعد التربية ، ونظر فيها إلى إظهار براعة المؤلف ذاته ، بحشد الألفاظ الغريبة ، والتراكيب المترادفة المتواردة ؛ تلك التي قل أن تستحوذ عليها رءوس الاحداث او تملأ بها نفوسهم — مع كل هذا فانها لم تحدث الأثر الذي كان يرجى منها ! ويقيني أن أمثال هذه الكتب قد أساءت إلى الإنشاء بمقدار ما أساءت إلى الراغبين فيه من الناشئين ، والمشرفين عليه من المعلمين !

فهذه الكتب جناية ملثمة ، يدخل بها المؤلفون على نفوس المعلمين ، وأقل ما ينالهم من شرها ، أنها تحبسهم في دنيا المؤلف ، حيث يجب عليهم أن يكونوا أحراراً ، ينتزعون موضوعاتهم من البيئة والصور القريبة من حواس الناشئين ونفوسهم وأفئدتهم .

ومما لاشك فيه عندي ، أن تلك الكتب تعود المعتمدين عليها الكسل العقلي ، وقلة التفكير ! إذ ما الذي يدعو المعلم إلى أن يعمل ذهنه ، ويكد خاطره ، في

اختيار الموضوع ، مادامت الكتب بين يديه مليئة بالموضوعات والعناصر ؟

وتلك الكتب أيضاً حرب على مستقبلى المعلمين ومعوزيهم ؛ فالمعلم يجهد نفسه فى درس الانشاء الشفوى ، سالكا إلى غايته سبيلا مرسومة ، هى أهدى السبل فى اعتقاده ، بينما التلاميذ معرضون عن الدرس ، غير مساهمين فى المحادثة والنقاش ! وما الذى يكلفهم مئونة هذا العناء من الإصغاء والعناية والمشاركة ساعة وفى قدرتهم نقل الموضوع عن كتب الإنشاء إلى الكراسات ، وبهذا يؤدى مثل ذلك الواجب الثقيل ؟

وهكذا تقضى كتب الإنشاء على النشاط الصاعد فى نفوس الطلاب ، كما تعودهم الكسل العقلى ، وقلة الاهتمام بالانشاء ، ومن هنا كانت تلك الكتب التى يتبارى المعلمون فى إظهارها كل يوم داء لادواء ، وجناية ملمة يدخل بها ذووها على نفوس المعلمين والمتعلمين جميعاً

— ٢ —

ومن المسلم به أن لكل معلم طريقة يعالج بها الموضوعات الإنشائية ، ولى ملاحظات على بعض مايتبع فى تعليم الانشاء أشير اليها فيما يلى :

لست أدرى لم يهتم المعلمون ، وبعض المشرفين على اللغة العربية ، بأن يتزود مبتدئو التلاميذ بطائفة من التعابير الشائقة ، والتراكيب الخلابة ، والأساليب الفصيحة ... ؟

ولست أدرى لم يلزمون هؤلاء المبتدئين أن يقتبسوا فى موضوعاتهم ، مايتصل بها من الآيات والأحاديث ، والحكم والأمثال ، والأساليب الشعرية ؟

ولست أدرى لم نقدم اليهم لدى كل موضوع ، بعضا من التعابير المتناثرة المبتورة ، والجمل المتفرقة المصمتة ، ليُحلوا موضوعاتهم بما يشاءون منها ؟

حسن أن يتزود الناشىء بجديد المفردات . ومستطرف التراكيب ، ولكن كيف يتزود ؟ أيكون ذلك بأن تُنتزع له هذه المفردات وتلك التراكيب انتزاعاً ، ثم يكلف حفظها تكليفا جافا مشوشاً ، دون أن يعرف كيف ولا متى تستعمل ؟ لو كان ذلك كذلك ، لكنا عابثين غير متجين ؛ ولكنا أيضاً متعسفين مع الوديعة التى بين أيدينا ، غير مسلمين بما يجب أن يقدم له من غذاء تشتهيه نفسه ، وتمسكه معدته ؛ فتهضمه وتمثله !

إن تزويد الناشئين بما ألمعنا إليه لا يتأتى لهم على النحو السابق ، وإنما يجيء عن طريق كتب حديثة ، كتب فى المطالعة الإنشائية ، يكون أساسها اختيار الموضوعات والأفكار التى تتناسب مع ميول المبتدئين وأسنانهم ، وأن نستعين بكل ما يخدم غاياتها من الاتجاهات الحديثة فى التربية وعلم النفس .

هذا من جهة الأساس ، أما من حيث المادة التى تؤلف كل موضوع ، فينبغى أن تكون على نحو جديد ؛ فنحن كما نعنى بالأفكار التى يشتمل عليها الموضوع ، يجب أن نعنى كذلك بالمفردات التى نرى تزويد الطالب بها فى ذات الموضوع ، وليكن سبيلنا فى إثارة انتباهه وشوقه إلى هذه المفردات ، أن نعرضها عليه فى تراكيب مختلفة ، وصور شتى ؛ فعلينا أن نعرض عليه الفعل الجديد ، ماضياً ومضارعا وأمراً ، ومجردا ومزيدا ، ومثبتا ومنفيا ، ومتصلا بضمير وغير متصل ، كما نقفه على مصدر هذا الفعل ومشتقاته ، والجموع التى يمكن أن تكون للاسم المشتق منه إلى آخر ما يمكن اشتقاقه وتوليده .

فإذا فعلنا ذلك ، وكررنا كل تركيب مرات على نحو ما نرى فى كتب المطالعة الإنجليزية الحديثة « طريقة ويست » ، فإننا نستطيع أن نحصل فى النهاية على طالب مفتن فى الإنشاء ، طالب يعرف كيف يطوع لنفسه المفردات والتراكيب التى عرفها بكثرة التداول ، والمرور أمام بصره ، دون أن يعتوره تعثر أو خطأ .

أما أن نكلفه حفظ صورة واحدة للكلمة الغريبة عليه ، كما يحصل فى مفردات المطالعة ، أو نعطيه عقب كل موضوع إنشائى شيئاً من التراكيب التى تتصل بالموضوع ، رجاء استخدامها وتحلية الموضوع بها ، فهذا عمل غير منتج كثيراً ، وقلما يكوّن منشئاً بالمعنى الذى نتصوره ، ونسعى إليه .

فإذا لم يكن بد من كتب للإنشاء — وهذا لازم — فالواجب أن تكون على الوضع الذى أجملناه . وقد آن للغيورِ من المربين أن يفكروا فى ذلك ، أما تلك الكتب التى تعتمد كثيرا على البهارج اللفظية ، وحواشى الصنعة الكلامية ، والمبالغة والتهويل فى التعبير والتصوير ، فإنها حرب على المعلمين ، وقيد لعقول المتعلمين ! !

— ٣ —

والذين ينادون بضرورة الاقتباس من القرآن والحديث ، والحكم والأمثال والشعر ، ابتداء من السنة الثالثة الابتدائية مخلصون للغة، بقدر إساءتهم للإنشاء، وإرهاقهم للعقول الصغيرة ! وأحسبهم يكادون يجهلون نوع الإنشاء المنشود من هؤلاء المبتدئين ، والطاقة التي يقدرون عليها في هذه المرحلة !

وليس الغرض من الإنشاء في المرحلة الأولى ، أن يستخدم الناشيء الاقتباس في كتابته ، وإنما المرجو منه — مع إرشاد المعلم — هو التمرين البدائي على الإبانة والإعراب عما في نفسه من المعاني والخواطر الصغيرة إزاء موضوع ما . بعبارة من عنده سهلة صحيحة ، فإذا نجحنا في ذلك ، أسدينا إلى مدرس الإنشاء في المرحلة الثانوية صنيعا ، حيث نقدم إليه تلميذا منظم الفكر ، مرتب العبارة ، كثير الاحتفال بالانشاء والرغبة في الاستزادة منه ، والترقي فيه . على أن الاقتباس أو الاستشهاد عملية عقلية مركبة ، تحتاج إلى طاقة كبيرة من الدربة ، ولطف الاحتيال ، والتمهيد بعبارات و مقدمات يجيء بها القول المقتبس ، كأنه من مقول المنشيء ، وهذه العملية أشق وأصعب من الانشاء ذاته ، وطالما رأينا التلميذ يضع البيت من الشعر ، أو الجزء من الآية ، في حيث يعنّ له ، دون التفات أو اهتمام بالتمهيدات ، التي تنتهي متسلسلة إلى القول المأثور ، من غير التواء أو نتوء ، وبذلك يُفسد إنشاءه ، ويدع الموضوع يفقد بهجته ورواءه !

فإذا جاز لنا أن نعنى بالاقتباس ، على أنه أحد الموارد المنمية للثروة اللغوية والأدبية ، والكوة التي يشرف منها الطالب على صور فنية رائعة ، والفاكهة التي تثير أشواقه إلى سائر الأطعمة الأخرى - فإنما يكون ذلك في منتصف المرحلة الثانوية ، حيث يكون الطالب قد شدا في ذوق الأدب شيئاً ، وحيث يكون قد نما عقله ، وكثرت دربته ، واتسعت وتنوعت دائرة ثروته اللغوية ، وصار استخدام القول المأثور ، أو المثل السائر ، لا يعجزه ، أو يغلب احتياله ، ومرونته الإنشائية .

— ٤ —

وعندي أننا سنظل بعيدين عن الغاية المثلى في صياغة الطالب في الإنشاء

الصياغة التى نرتضيها . حتى تتعاون وزارة المعارف مع المعلمين كل التعاون ، فالواجب على المعارف أن تضع تحت تصرف التلميذ فى كل سنة، من كل مرحلة ، أكثر من كتاب وقصة فى المطالعة ، والواجب على المعلم أن يحسن استخدام هذه الكتب لخير التلميذ ونفعه ، وأن يثير أشواقه إلى استيعابها والإفادة منها ، معنى ومبنى ، وإذا كان موضوع الإنشاء الذى يكتبه التلميذ ، إنما هو خلاصة معارف الأسبوع ، وثمرة ما أفاد وحصل من اللغة ، ألا يكون من الواجب علينا للتلميذ أن نتعهد سائر فروع اللغة بالعناية والرعاية واليقظة ، وأن نحيلها إلى روافد تمد مجراه الإنشائى ، بكل عذب سائغ مفيد .

فدروس قواعد اللغة ، لم نشوه من جمالها ، ونقلل من شأنها وأثرها ، فنقدمها للتلاميذ على أنها مادة أو علم مستقل بذاته ، ثم جافة عارية ؟؟ إن من الإنصاف للعلم ، وربط السبب بالمسبب ، أن يفهم الناشىء ويقرر له لدى البدء فى دراسة القواعد ، أننا لا ندرسها لذاتها ، ولكن لأنها أساس الإنشاء ، وبقدر فهم التلميذ للقواعد والتطبيق عليها ، يكون حظه من الانشاء . فاذا استطعنا أن نشوقه إلى القواعد بمثل هذا القول . وإذا استطعنا أن نجعله يلمس مقدار ارتباط الانشاء بالقواعد ، ومدى احتياجه إليها ، فاننا نكون قد ضمنا فى الغالب سلامة تركيبه ، ونجحنا فى تحبيب القواعد إلى نفسه ، وإثارة همته لحذقها والإفادة منها .

ومن التهاون فى دروس التطبيق ـ شفويا كان أو تحريريا ـ أن نقبل من التلاميذ جملا تافهة المعنى ، ساذجة التركيب ، ومن الخير أن يرد إليهم المعلم كل جملة من هذا القبيل ! وإلا فمتى وكيف يتقدم فى الإنشاء هذا الذى تطالبه بجملة فعلية ، فيقول لك مثلا : قرأ الولد ، أو لعب الرجل ؟ إن من الواجب التشدد والتدقيق فى تكوين الجمل ، حتى تجىء قوية الأداء والدلالة ، وحتى يأخذ التلاميذ أنفسهم من الصغر بالتعبير القوى ، والإنشاء الحسن .

ودروس المطالعة تعود بالنفع العميم على الإنشاء ، إذا استعلمت فيما وضعت له ، وهى تتطلب من المعلم مجهودا فى إعداد كل ما يلزم لها من شرح مفردات ، وتكوين أسئلة . ومن توجيه الأنظار والنفوس إلى التراكيب التى يصح أن يلتفت إليها الطالب ، ويعطيها عناية خاصة ، وكم يفيد المعلم حين يكلف تلاميذه

قراءة كتاب أو قصة خارج الفصل . ثم يخصص كل أسبوع ، إحدى حصص المطالعة : ليسألهم فيما قرءوا ، وليتخذ منه موضوعا للمناقشة والمحادثة . وفى ذلك خير معين له وللتلميذ على النجاح فى الإنشاء .

وقد يكون من المفيد أن يجعل المعلم دروس المطالعة خادمة للإنشاء من ناحية أخرى ؛ فإذا شاء أن يعطى تلاميذه موضوعا وصفيا ، كان عليه أن يبحث فى كتاب المطالعة عن الموضوعات الوصفية ، ثم يختار منها موضوعا أو موضوعين متناسبين يجعلهما أساس المطالعة فى ذات الأسبوع الذى يعطى فيه ذلك الموضوع الوصفى ، وتلك فى الواقع هى فرصة التهيؤ الذهنى والنفسى ، كما أنها الفرصة الطبيعية القريبة ، لإمداد التلاميذ بما هو أدنى إلى طبيعة الموضوع الذى سيكتب عنه ، من الألفاظ والعبارات التى نوقش فيها حديثا ، وعرف بعض وجوه استعمالها ، فإذا سار المعلم على هذا النمط من الحفاوة بالانشاء وجعل المواد اللازمة له قريبة من أيدى التلاميذ وأفهامهم ، كان من الطبيعى أن يجىء موضوع الاملاء السابق للانشاء ، مشابها للموضوع الذى سيكتب عنه التلاميذ ، حتى يكون لديهم فوق ما سبق صورة كاملة ، يصح لهم أن يحاكوها ، ويتأثروا بها أثناء البدء فى كتابة الموضوع .

— ٥ —

وبعد فهذه خواطر سريعة ، قصدت بها أن أجمل الرأى فى كتب الانشاء عامة ، كما قصدت أن أبين العوامل التى تقلل من ثمرة طريقة الانشاء المألوفة ، مع الإلماع إلى ما يجب إدخاله على هذه الطريقة ، حتى تصير أكثر فائدة وإنتاجا . ولعل من يهمهم هذا الأمر يؤازروننا بآرائهم ، كى نصل فى النهاية إلى علاج يكاد يكون حاسما لهذه العلة ، التى طالما حارت فيها أفهام الأساة ، وضلت حيل النطاسيين ! إنهم إن فعلوا فقد أسدوا إلى اللغة والانشاء ، ثم إلى النشء الحائر يدا مشكورة ، وعملا مجيدا .

عبد العزيز عتيق